العرب
الخميس 2021/03/11
السنة 43 العدد 11996

محافظة إدلب الاستراتيجية برميل بارود قابل للانفجار

إدلب (سوريا) - تحوّلت محافظة إدلب الاستراتيجية الواقعة شمال غرب سوريا، والتي كانت يوما ما ملاذا هادئا آمنا نسبيا للسوريين النازحين من أنحاء أخرى في البلاد، إلى بؤرة لانتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان، وقصف جوي منتظم، وفضاء تتنافس فيه عدة قوى، خاصة بعد أن أضحت آخر معقل للثوار والجماعات الجهادية.

وفي أعقاب ثماني سنوات من المواجهات الدامية بين قوات النظام السوري والفصائل التي تدعمها تركيا وجماعات متشددة، في المحافظة، التي تم فيها تجميع معارضي بشار الأسد، الرافضين للتسوية معه، انتهت باتفاق هش لوقف إطلاق النار بين الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ونظيره التركي رجب طيب أردوغان في مارس العام الماضي، مع إنشاء "ممرّ آمن" في مساحات محددة على الطريق أم 4.

لكن المتابع لما يحدث هناك يجد أن المنطقة الخاضعة اليوم لهيئة تحرير الشام (جبهة النصرة سابقا) وفي أجزاء كبيرة منها لنفوذ تركي، وشهدت تدفق أكبر موجات النزوح في العالم إليها، قد تشهد تقلبات أكبر في الفترة المقبلة إلى درجة أن البعض يتخوف من أن تتحول إدلب إلى قطاع غزة جديد.

ويمكن إثبات أهمية إدلب الاستراتيجية بالنسبة إلى كافة الأطراف المشاركة في التوتر بعاملين أساسيين؛ الأول، أنها تحدد بشكل أساسي مستقبل الحرب الأهلية السورية. وثانيا، أن المحافظة تعتبر حاليا أكبر نقطة خلاف بين دمشق وأنقرة، حيث يرى المتابعون أن أيّ تهدئة بين الطرفين ستكون مهمة للغاية للاستقرار الجيوسياسي في المنطقة.

فابريس بالانش

هيئة تحرير الشام وعدة فصائل تتحكم في أجزاء من إدلب

وتحاذي إدلب تركيا، التي باتت تتمتع بنفوذ كبير داخل سوريا بعد دخولها على خط النزاع من منطلق دعم المعارضة، من جهة، ومحافظة اللاذقية، معقل الطائفة العلوية، التي ينتمي اليها الأسد من جهة ثانية. ويقع مركز المدينة على مقربة من طريق حلب – دمشق الدولي، الذي شكل لسنوات هدفا لقوات الأسد حتى تمكنت إثر هجمات من استعادته كاملا.

وانضمت المحافظة سريعا الى ركب الاحتجاجات عند انطلاقها ضد النظام في مارس 2011 وبعد أربع سنوات، سيطر عليها ائتلاف فصائل معارضة ومقاتلة من بينها جبهة النصرة آنذاك قبل فكّ ارتباطها عن تنظيم القاعدة.

لكن ومنذ عام 2019 باتت إدلب ومناطق محاذية محدودة من محافظات حماة وحلب واللاذقية تحت السيطرة الفعلية لهيئة تحرير الشام قبل أن تتقدم قوات النظام في جنوبها تدريجيا بعد عمليات عسكرية كان آخرها في نهاية ديسمبر من ذلك العام وتقلصت بالتالي مناطق سيطرة الهيئة إلى أقل من نصف مساحة إدلب.

ويقول الخبير في الجغرافيا السورية فابريس بالانش لوكالة الصحافة الفرنسية إن هيئة تحرير الشام والفصائل المدعومة من أنقرة هي من تسيطر اليوم على 3000 كيلومتر مربع فقط، مقارنة مع 9000 كيلومتر مربع في العام 2017.

وبخلاف هيئة تحرير الشام المتطرفة، التي يبلغ عدد مقاتليها عشرة آلاف، فإن القوات المسلحة الرئيسية في إدلب هي جبهة التحرير الوطني المدعومة من تركيا، وحراس الدين، أحد فروع تنظيم القاعدة، والحزب الإسلامي التركستاني، الذي يهيمن عليه مسلمو الإيغور الصينيون.

ووفقا لتقرير صادر عن مجلس الأمن في يناير 2019 كان هناك ما لا يقل عن 20 ألف مقاتل متمرّد، بما في ذلك العديد من الأجانب قدموا من فرنسا وبريطانيا ودول القوقاز وهم مرتبطون بجماعة هيئة تحرير الشام، التي تتحكّم في أجزاء من المحافظة، وتتولى عبر مؤسسات مدنية واجهتها "حكومة الإنقاذ"، وأجهزة أمنية وقضائية خاصة بها تنظيم شؤون نحو 3 ملايين نسمة غالبيتهم من النازحين.

وتجني الهيئة، التي يتزعمها أبومحمد الجولاني، عائدات من حركة البضائع عبر المعابر مع كلّ من مناطق سيطرة النظام وتركيا، كما تحتكر توزيع الوقود، وتبلغ قيمة أرباحها نحو مليون دولار شهريا، وتتحكم أيضا بتوزيع المساعدات الإنسانية وتصادر جزءا منها لدعم شبكاتها الزبائنية.

ولا يبدو أن ثمة دلائل على أن المحافظة ستغادر مربع الأزمة المتشعبة قريبا، فبعد كل هجوم كانت تشنّه قوات النظام، كان يتبعه اتفاق تهدئة برعاية روسيا وأحيانا إيران الداعمتين لدمشق وأنقرة، يستمر لفترة معينة إلى أن يعاد تحريك لعبة الشطرنج في سوريا.

وتنشر تركيا الآلاف من قواتها في إدلب، وخلال الهجوم الأخير الذي سبق اتفاق التهدئة الساري حاليا، وجدت قوات النظام نفسها، بعد طرد الفصائل المقاتلة من بعض المناطق، في مواجهة مع القوات التركية أدت إلى سقوط قتلى من الطرفين.

ويقول مراقبون إنه خلال وقف إطلاق النار الذي ظنّ الكثير أنه سيسقط كما الاتفاقات التي سبقته، تورطت تركيا بشكل كبير في إدلب عبر نشر نحو 15 ألف جندي. ويرون أن تركيا التي تخشى موجة جديدة من النزوح إليها، ستقف بالمرصاد لأي هجوم جديد، وهذا يعني أن الرهانات السياسية باتت أكثر أهمية، مقابل تراجع احتمال العمل العسكري.

ولا يعتقد الدبلوماسيون الغربيون أن مستقبل إدلب سيبقى كما حاضرها، أي منطقة محاصرة مجهولة المصير تسيطر عليها مجموعات جهادية. ويقول أحد هؤلاء لوكالة الصحافة الفرنسية "هذا ليس السيناريو الأكثر ترجيحا"، معددا عوامل عدة تهدّد الوضع القائم من بينها وجود ملايين النازحين، والقضايا الإنسانية والتهديد الذي تشكله بعض المجموعات الإرهابية على تركيا والغرب.

وتقول الباحثة في مجموعة الأزمات الدولية دارين خليفة إنه من شأن موجة جديدة من اللاجئين أن تنتج تحديات سياسية واقتصادية وإنسانية جديدة لتركيا التي تحاول أن "توازن" بين مصلحتها في إبعاد النظام عما تبقى من إدلب و"الحفاظ على علاقاتها مع روسيا وتفادي أي مواجهة خطيرة".

وبعدما سيطرت قوات النظام على طريق دمشق – حلب الدولي، يقول محللون إنها قد تسعى في أي هجوم مقبل إلى استعادة ما تبقى خارج سيطرتها من طريق أم 4 الذي يربط مدينة حلب باللاذقية.

انتخابات الرئاسة السورية.. ماذا بقي من معنى لرحيل الأسد أو استمراره؟

إبراهيم الجبين
كاتب سوري

من المتوقّع أن تنظّم في سوريا، خلال شهر أبريل القادم، انتخابات رئاسية دار جدل حاد حول شرعيتها والمشاركة فيها، وأعلنت دول عظمى وهيئات معارضة سورية مختلفة، عدم اعترافها بنتائجها. بينما هاجم الروس على لسان نائب وزير الخارجية سيرغي فيرشينين، مطلع هذا العام، الدعوات لعدم الاعتراف بها معتبراً أن هذا «يعني عملياً حرمان السوريين من حق انتخاب قيادتهم».

أما الرئيس السوري بشار الأسد، والذي كان مفتي جمهوريته أحمد حسّون قد صرّح لمجلة «دير شبيغل» الألمانية في العام 2011 أنه وبعد أن ينهي سلسلة إصلاحاته، سوف ينسحب من المشهد السياسي كله ويكتفي بفتح عيادته في دمشق، فيبدو مصرّاً على تنظيم تلك الانتخابات والاستعداد لها وخوضها.

ولعل التبني الرسمي لخبر إصابته وزوجته بفايروس كورونا، مؤخراً، يأتي في سياق حصد التعاطف من أجل حملته الانتخابية، إذ عادة ما تكون أخبار صحة الرئيس السوري سريّة ومحظورة كما كان الحال أيام أبيه.

لكن وضع بشار الأسد يختلف عن وضع أبيه اختلافاً جوهرياً. الأسد الأب قدم إلى السلطة من بوابتين كبيرتين كانتا في زمنهما قادرتين على تأمين ما كان يطيب له أن يسميها «الشرعية الثورية»، بوابة حزب البعث العربي الاشتراكي، وبوابة الجيش.

وكان الانقلاب الذي جرى في مثل هذه الأيام من شهر مارس عام 1963 هو المسار الذي أفضى إلى تلك «الشرعية الثورية» التي بقي الأسد الأب يحدّث ضيوفه الأجانب والعرب عنها في جميع مراحل حكمه، وهي ذاتها أيضاً التي ستُطالب ابنه بشار منذ العام 2011 بالتنحي عن الحكم، بعد اتهامات محلية ودولية قالت إنه «فقد شرعيته» التي لطالما كانت صُداعَه المزمن؛ شرعية تكون الانتخابات في الغالب مصدرها الأوحد في الجمهورية الطبيعية.

في سوريا الوضع مختلف. منذ البداية لم يكن زعماء البعث وقادة الجيش السوري مقتنعين بأحقية الحزب بالانقضاض على السلطة، باستثناء مؤسس البعث ميشيل عفلق الذي أدرك أنه لا يمكن تغيير الأوضاع في دمشق، دون أن يقع تغيير كبير في مركز الثقل العربي الرئيسي الآخر في المشرق، عنيتُ بغداد. فعمل على التخطيط للوصول إلى الحكم مع تلميذه الراحل علي صالح السعدي، أمين سر قطر العراق وقتها، دون أن يُطلع قيادة البعث السورية على ما يجري في البلد الجار. السعدي ذاته الذي قاد ثورة البعث الأولى في فبراير 1963 سيقول لاحقاً «جئنا بقطار أميركي».

حدث ما أراده عفلق، واستولى البعث بعد شهر واحد على السلطة في دمشق، وتوالدت في سوريا سلسلة من الشرعيات، واحدة تأكل سابقتها، حتى وصل الحكم إلى الأسد الأب الذي أصرّ على تعزيز شرعيته بتصحيحات وانتخابات واستفتاءات استمرّت حتى لحظة وفاته في العام 2000، حين عاد القطار الأميركي مجدّداً ليمرّ من دمشق، عبر زيارة «الواجب» التي قامت بها وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت، خلال جنازة حافظ الأسد.

لا ينتمي بشار الأسد في الواقع لا إلى المؤسسة العسكرية، فقد انخرط فيها بعد مقتل أخيه الأكبر باسل، ولا إلى الهيكل الفكري أو التنظيمي لحزب البعث، ولم يفلح دهاء والده في العثور على فتوى سياسية تجعل من ابنه وريثاً شرعياً للحكم في بلد جمهوري. وبقيت تلك المعضلة عصيّة عليه، قبل أن يقرّر ترك عناء حلّها لغيره من بعده.

ترفيع بشار الأسد من رتبة عقيد إلى رتبة فريق، ومن ثم تعيينه قائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة، وترقيته ليصبح أميناً قطرياً لحزب البعث، وتعديل الدستور ليتواءم مع عمره آنذاك، كل تلك الإجراءات كانت محاولات لتعويض الثغرة التي سيبقى الأسد يبحث عن رتقها، منذ تلك اللحظة، وصولاً إلى الانتخابات المزمع إجراؤها قريباً.

وحدها أولبرايت نجحت. أشارت، بعد اجتماعها القصير مع بشار الأشد في جنازة والده، إلى أنها لمست بوادر مشجّعة جدا إزاء رغبة الأسد الابن في اتّباع نهج والده. وقالت «يبدو أن بشار مستعدٌ لإتمام واجبه». ومما قالته حينها إنه «من الضروري أن تكون سوريا جزءاً من حلّ إقليمي في الشرق الأوسط نبحث عنه جميعا. طريق تحقّق فيه المنطقة كلها الرخاء وتكون إسرائيل جزءا لا يتجزأ منه». فهل ما زالت كلماتها صالحة لدعم حملة الأسد الانتخابية القادمة؟

لم ينس الأسد تلك الشيفرة التي حدّدتها أولبرايت. لكنْ بالمقلوب، فطالما أن بلاده، كما يفهم الأميركيون، جزءٌ من الحلّ في الشرق الأوسط، إذاً فسبيل البقاء الوحيد هو فعل العكس، وإخراج سوريا من التأثير الاستراتيجي على مستقبل المنطقة، وتعهيدها إلى لاعبين أوضاعهم الداخلية مستقرة، عندها لن تكون هناك أيّ مشكلة في من يحكم دمشق. هذا هو الدور المطلوب إذاً، ولم يتبق عليه سوى «إتمام واجبه».

أول عشر سنين من حكمه اتسمت بتخريب تدريجي متعمّد لما تبقى من الإمكانات الاقتصادية لسوريا التي عُرفتْ بـ«ألمانيا الشرق» نتيجة قدراتها الصناعية والزراعية، تلتها عشرُ سنين من الحرب والتدمير المنهجي للمدن والأرياف السورية، وتهجير للملايين وخلخلة المجتمع، وما يزال الأسد يراهن على تلك المعادلة، ولا وزنَ عنده لأيّ معارضة أو مفاوضات أو لجان دستورية أو قرارات أممية حول الانتقال السياسي وتشكيل هيئة حكم، ما دام القطار الأميركي مرحّباً، بشكل مباشر أو غير مباشر.

من المرجّح أن شطراً من السوريين لم يعد يكترث كثيراً إن رحل الأسد أو بقي، فما قيمة رحيله بعد أن رحل المطالبون بذلك عن سوريا واستقروا في المنافي وبلاد اللجوء؟ وما جدوى رحيل الأسد بعد رحيل سوريا ذاتها التي كانوا يعرفونها واختفائها عن الوجود؟

يتوجب أن يكون السؤال هكذا؛ بل ما قيمة بقاء الأسد بعد هذا كلّه؟ بعد تفكيكه للجيش السوري بالحرب التي أمره بشنها ضد المدنيين، وبعد استعانته بالروس والإيرانيين، وبعد تقزيمه لحجم حزب البعث وتحويله إلى فصيل عقائدي من فصائل الولي الفقيه، وبعد إقامة جدار من الدم يطوّق طائفته العلوية ويعزلها عن مجتمعها السوري، وأخيراً وهو الأهم، بعد إفقاده لسوريا أهميتها ودورها في اللعبة الإقليمية والعالم العربي؟

كانت لحافظ الأسد تعبيرات متهكّمة يبسّط بها المشكلات التي تواجهه، كما حين علّق مرّة على شكوى رفيقه البعثي منصور الأطرش ابن سلطان باشا قائد الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي، من تجاهل رفاقه البعثيين له، ومن عدم منحه المكانة اللائقة به في سوريا حافظ الأسد الذي قال وقتها «من أين نأتي لمنصور بفرنسيين يحاربهم كما حاربهم والده في الماضي؟».

واليوم، ومع فارق الشبه، من أين يأتي العالم لبشار الأسد بسوريا يحكمها كتلك التي حكمها والده، فضلاً عن فتح عيادته فيها ذات يوم؟

> ترفيع بشار الأسد من رتبة عقيد إلى فريق وتعيينه قائداً عاماً للجيش وترقيته ليصبح أمينا قطريا لحزب البعث وتعديل الدستور ليتواءم مع عمره ثغرات سيبقى الأسد يبحث عن رتقها وصولاً إلى الانتخابات المزمع إجراؤها